الطبعة الثانية

مراد هوفمان

الإسلام عام 2000

نقله إلى العربية: عادل المعلم

العبيكان
Obeikan

مراد ويلفريد هوفمان

الإسلام

عام ٢٠٠٠

ترجمة: عادل المعلم

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

هوفمان، مراد ويلفريد

الإسلام عام ٢٠٠٠ ./ مراد ويلفريد هوفمان؛ عادل المعلم. ـ الرياض، ١٤٢٤هـ

١٢٠ص؛ ١٤×٢١سم

ردمك: ٠ ـ ٣٨٩ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الإسلام ـ مقالات ومحاضرات

أ ـ المعلم، عادل (مترجم) ب ـ العنوان

ديوي ٨, ٢١٠ ٣٠٩٥/ ١٤٢٤

ردمك: ٠ ـ ٣٨٩ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣٠٩٥/ ١٤٢٤

الطبعة الثانية

١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

قابلت د. مراد هوفمان مرتين في القاهرة في أوائل التسعينيات، كان يشغل وقتها منصب سفير ألمانيا في الجزائر، ثم المغرب.

ظهر في المقابلتين أنه ليس فقط متحدثاً لبقاً، بالألمانية والإنجليزية والفرنسية، واسع المعرفة، متواضعاً ـ فهذا المفترض في كل سفير ـ بل صاحب فهم عميق ودقيق لمقاصد الإسلام.

ثم قرأت له كتاب «الإسلام كبديل» الذي نُشر بالألمانية والإنجليزية والعربية، فوجدت فيه رؤية[١] متكاملة بعيدة النظر، وفي الوقت نفسه سابرة الغور للإسلام والمسلمين والغرب، ويرى فيه ـ رغم حال المسلمين ـ الإسلام مؤهلاً لأن يكون دين القرن ٢١، وبديلاً للنظام ـ أو على الأحرى اللانظام ـ العالمي الحالي.

قابلت الدكتور هوفمان بعد ذلك في ديسمبر ١٩٩٣م في الرباط، فطلبت منه كتاباً لتصوراته عن مستقبل الإسلام، فوعدني بذلك بعد الانتهاء من كتابه «رحلتي إلى مكة».

(١) الرؤيا: ما يُرى في النوم (ج) رؤًى.
رُؤية: أبصره بحاسة البصر.

وفي إبريل الماضي، أرسل لي كتابه الذي بين يديك «الإسلام عام ٢٠٠٠» مع رسالة رقيقة يأمل فيها ألا يسبب نشر هذا الكتاب أي مشاكل لي أو لدار الشروق.

وأود الإشارة إلى أن كل هوامش الكتاب المرقمة هي للمؤلف، والأخرى للمترجم.

عادل المعلم

مقدمة

ليس هذا أول كتبي عن الإسلام، ولكني كتبت كتبي السابقة لغير المسلمين.

لتقييم العالم الإسلامي على مشارف القرن الواحد والعشرين، وماذا عليه أن يفعل حتى يصبح دين القرن، اضطررت لأن أكون ناقداً شديداً لكل من الغرب والعالم الإسلامي.

إذا كان بوسعي تقديم شيء، فقد يكون ذلك الشيء هو الواقعية، والواقعية القاسية. وآمل أن يتبين للقراء كم أعاني شخصياً من المسائل المطروحة.

ولكني على قناعة بأن المسلمين المهتمين ـ المرتجين من السبات العميق، والدعة، والشك في الذات، وعقليتهم التي اعتادت تبرير المثالب ـ سوف يعملون جميعاً على تجديد هذا الدين، الأمر الذي نأمله جميعاً لصالح البشرية.

مراد هوفمان ـ إستانبول ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م

الإسلام عام ٢٠٠٠

أولاً: قليل من مستقبليات الإسلام

١ ـ سيحتفل العالم في ٢٤ من رمضان ١٤٢٠هـ ـ مع البهجة أو الألم ـ ببداية الألفية الثالثة بعد المسيح.

قد يكون للمسلمين أيضاً أسبابهم في أول يناير عام ٢٠٠٠م ليتأملوا ويتفكروا ماذا يخبئ لهم القدر، مع قصور دراساتهم المستقبلية.

قد يرى المسلم ـ استناداً لمزاجه الشخصي وتجربته في الحياة ـ أن المسلمين في انحدار مستمر منذ فجر الإسلام في المدينة المنورة. ألم يحذرنا النبيﷺ أن كل قرن سيكون أقل من سابقه [(١)][(٢)]؟.

قد يرى مسلم آخر تاريخ المسلمين على شكل موجات فيها سلسلة متعاقبة من الارتقاءات والانحدارات، تتقدم ـ إن جاز التعبير ـ في شكل حلزوني!

(١) عن عمران بن حصين عن النبيﷺ قال: خير أمتي القرن الذي بُعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يُستشهدون، ويحلفون ولا يُستحلفون» رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

(٢) «اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم» رواه البخاري.

ومسلم ثالث ـ متفائل بوضوح ـ يرى الإسلام في تقدم مستمر.

٢ ـ يستطيع كل من هؤلاء المسلمين الثلاثة أن ينتقي من القرآن والسنة ما يؤسس عليه نظرته.

ألم يحذرنا النبيﷺ أن الإسلام بدأ غريباً ويعود غريباً[١]؟.

ألم يخبرنا أنه سوف أن ينقسم المسلمون إلى ٧٣ فرقة [٢] ـ بعد انقسام اليهود إلى ٧١ والمسيحيين إلى ٧٢ ـ فتثبط الهمم؟

ومن الناحية الأخرى، ألم ينهض الإسلام بعد كل كبوة؟ وألا ننتظر مجدداً على رأس كل مائة عام[٣]؟

عَدَّ أبو حامد الغزالي (٥٠٥ / ١١١١) نفسه مجدداً كما يظهر من عنوان كتابه «إحياء علوم الدين».

---

(١) رواه مسلم وابن ماجة.

(٢) «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، واحدة في الجنة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، واحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة» رواه أبو داود وابن ماجة.

(٣) «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» رواه أبو داود.

كذلك يُمكن أن يُعد ابن تيمية (٧٢٨ / ١٣٢٨)، وشاه ولي الله (١١٧٦ / ١٧٦٣)، ومحمد بن عبدالوهاب (١٢٠١ / ١٧٨٧) ـ ومحمد عبده[١] (١٣٢٣ / ١٩٠٥) ـ الأستاذ الإمام ـ أيضاً مجددين. أحمد السرهندي (١٠٣٤ / ١٦٢٤) الذي قد يحمل لقب مجدد الألف الثاني.

٣ ـ قد يشكك المتفائل في وجود عصر مثالي سابق للإسلام من بعد الرسول.

هل طُبق الإسلام نموذجياً في العصور الأموية والعباسية والعثمانية، أو حتى في الأندلس؟ ألم تتراكم المعرفة والحكمة خلال التاريخ حتى اليوم؟ ألا يمكننا اليوم فهم الآيات العلمية في القرآن مثل العلق[٢]؟

يستطيع المتفائل أن يدعم نظرته بأدلة من النصوص. أليس هو أحد أعضاء ﴿ **خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [**آل عمران**: ١١٠]، والتي بمقدورها تغيير العالم إلى الأفضل في أخلاقياته ومعنوياته؟

---

(١) محمد عبده «رسالة التوحيد»، القاهرة ١٨٩٧م.

(٢) موريس بوكاي «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» الطبعة الخامسة. باريس ١٩٨٨م، الجزء السابع، وله أيضاً «القرآن والعلم الحديث» الرياض ص١٦. انظر أيضاً محمد طالبي/ موريس بوكاي «تأملات في القرآن» باريس ١٩٨٩م ص٢٣٣ ، ٢٣٤ .

ألا تعني ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، أن الله سوف يساعدنا إذا غيرنا ما بأنفسنا، ليس بإصلاح الإسلام، ولكن بإصلاح موقفنا وأفعالنا تجاه الإسلام؟ ألن يأتي حينئذ اليوم الذي ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢].

يجيب المتشائم بحديث رواه جابر بن عبدالله وأبو هريرة:

«**يدخل الناس الدين أفواجاً ويخرجون أفواجاً**»(*).

فلا تتعلق سورة النصر بالمستقبل، ولكنها تعلقت بفتح مكة وحضور الوفود العربية للمدينة لتدخل في الإسلام.

يستطيع مثل هذا المتشكك أن يعيد صياغة فقرات من كلام كل من محمد عبده ومتصوف فرنسي، مدلولها هجرة الإسلام من العالم الإسلامي، حيث يجد المرء مسلمين كثيرين، ولكن الإسلام قليل...

(*) لم أجد هذا الحديث في الكتب الستة ولا موطأ مالك ولا مسند أحمد، ولكن رواه الحاكم وصححه.

ثانياً: قليل من التفاؤل

١ ـ قد يكون من المفيد أن نفحص العالم كما هو الآن، فماذا نرى إذا فركنا أعيننا قليلاً؟ هل يتقدم الإسلام حقيقة؟ أم أنه ـ إذا تركنا المظاهر ـ ينحدر؟ أو أن المسلمين يترددون على حواف التاريخ، فريسة سهلة للاستعمار المادي والعقلي، كما هو حالهم لعدة قرون؟.

دعونا هذه المرة نسمع من المتفائل أولاً.

٢ ـ يجب على المرء أن يعرف كيف كانت الحال بمكة والمدينة في القرن السابق، ليتعرف على التقدم الحادث. لدينا أوصاف يُعتمد عليها من الحجاج الغربيين أمثال: المسلم السويسري بروكارت الذي عاش في مكة والمدينة ستة أشهر في ١٨١٤ / ١٨١٥[١]. وقد أيد رواية بروكارت كلٌّ من المسلم البريطاني سير ريتشارد بيرتون الذي زار مكة والمدينة في ١٨٥٣م[٢]، والألماني غير المسلم هينريش فون مالتزان الذي عاش في مكة في ١٨٦٠م[٣].

(١) چوهان لودفيج بروكارت «مكة والمدينة» برلين ١٩٩٤م.
(٢) ريتشارد بيرتون «حكايات شخصية لحاج بالمدينة ومكة» نيويورك ١٩٦٤م.
(٣) هينريش فون مالتزان «حجي لمكة» توبنجن ١٩٨٢م.

اتفق المؤلفون الثلاثة على تدهور حالة الأماكن المقدسة.. انعدام الأمن، انتشار الخرافات.. وصدق أو لا تصدق ـ أكثر من ذلك.

لم تقم الصلاة بانتظام، حتى بين الحجاج، الذين هبط عددهم إلى ٧٠,٠٠٠ عام ١٨١٤م (حسب تقدير بروكارت)، ثم إلى ٣٠,٠٠٠ عام ١٨٦٠م (حسب تقدير مالتزان).

وفي الحقيقة، بعد غزو نابليون لمصر، وبعد الانهيار والتمزق المتتالي للإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تنبأ الكثير من السياسيين والمستشرقين باختفاء الإسلام تماماً، وفي غضون حياتهم! فدرسوا الإسلام بصفته حضارة على وشك الاندثار، عليهم أن يسجلوها لأجيال المستقبل. وبهذه الروح، استطاع المستعمرون الفرنسيون تقدير عبدالقادر[١]، البطل الجزائري، الصوفي رجل الدولة، بوصفه شخصية فلكلورية غريبة، فيها شيء من الإزعاج، حتى الشخصيات االتي تعاطفت مع الإسلام، جوته (١٨٣٢) ـ على سبيل المثال ـ أعجبه تشدد الإسلام في وحدانية الله، وليس الإسلام كما يعيشه العالم الإسلامي[٢].

(١) برونو إنيه «عبدالقادر» ١٩٩٤م.
(٢) أحمد ڤون دنفر «الإسلام وجوته» ميونيخ ١٩٩٠م، ١٩٩٤م الطبعة الثالثة.

٣ ـ من يحج أو يعتمر اليوم، يجد التقدم هائلاً مقارنة بما كان عليه الحال في القرن الماضي. فقد تم توسيع الحرم المكي والحرم المدني بجمال واقتدار ليسعا ٤٨٠,٠٠٠، ٦٥٠,٠٠٠ حاج، وما زالا صغيرين أمام الزيادة الهائلة لمن يريدون الحج، والذين يحجون الآن طبقاً لحصص محددة لكل دولة لا تتعداها، وقلَّت السرقات، وأصبح النساء لا يدخلن البلاد منفردات، والصلاة تقام في أوقاتها أمام أنظار العالم.

٤ ـ اختلف موقف المستشرقين من الإسلام، منذ عشرينيات القرن الحالي، وكان ذلك بداية لتغييرات أخرى إيجابية، فلم تعد دراسة الإسلام على طريقة لورنس العرب لصالح الإمبريالية البريطانية، بل تولته نخبة من الأكاديميين الأوروبيين، منهم رينيه جينو، مارتن لنج، تيتوس بروكاردت، وليوبولد فايس: محمد أسد. ومن بين المستشرقين الذين لم يعلنوا إسلامهم، هناك جاك بيرك، لويس مانيون، ودنيس ماسون، آناماريا شمل ، والذين بدا بعضهم على وشك أن يدخل الإسلام.

وكثير من زملائهم المستشرقين، تحلوا في دراستهم الإسلام بروح التعاطف والاعتناق بدلاً من الاشمئزاز والضيق.

وفي الوقت نفسه، منذ الثلاثينيات، وضعت حركات إحياء الإسلام ـ من القاعدة العريضة للشعب ـ في معظم البلاد الإسلامية، الإسلام في الأجندة السياسية للبلد، ونموذج لذلك

حركة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا[١] في مصر، ودعاتها من أمثال سيد قطب (١٩٦٦م)، ومحمد الغزالي، كذلك أبو الأعلى المودودي (١٩٧٩م).

لم يجئ الإحياء من القاعدة العريضة للشعب فقط، فالحركة السنوسية، وإلى حد ما حركة محمد عبده، جاءت من أعلى، وانتشرت بفضل الإمكانيات المادية.

ومما لاشك فيه أن أغنياء المسلمين من الزعماء وغيرهم لهم أثر كبير وفاعل في إعطاء الدعوة الإسلامية بُعدًا كبيرًا في العالم؛ فعلى سبيل المثال ما يقوم به مجمع الملك فهد في المدينة المنورة من طباعة ملايين النسخ من القرآن الكريم وتوزيعها على المسلمين في جميع أنحاء العالم، هذا بالإضافة إلى طباعة الكتب الإسلامية وتوزيعها في جميع مكتبات العالم.

والخلاصة، إن ذلك التطوير، نُظر إليه كتهديد أصولي، **مما جعل الإسلام يحتل القمة فيما يشغل الإعلام العالمي في الربع الأخير من القرن الماضي.**

٥ ـ لا يتوقع أحد اليوم أن يختفيَ الإسلام، ولكن أن يمتد، بل وينفجر! ويضع جنرالات الناتو في حسبانهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالاً في المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب، ولكن بين الشمال والجنوب، فالإسلام هو العدو المتنامي المرتقب.

(١) «رسائل حسن البنا» بيركلي، لوس أنجليس ١٩٧٨، ما زالت مادة رئيسة.

يرجع بهذا الخوف المسلمون المهاجرون عند عودتهم لبلادهم. أصبح تعداد المسلمين في كل من ألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بالملايين. وتقدر الإحصاءات الغربية إجمالي عدد المسلمين في العالم بـ ٩٩٠,٥٤٧ مليون ـ وهو رقم متحفظ عليه ـ وهؤلاء يسببون الخوف والهلع[١].

تنتشر المساجد في العالم كله بين لوس أنجليس، روما، زغرب، حتى موسكو وبكين. وفي قرطبة الحاضرة القديمة للخلافة الأموية في الأندلس، أسس المسلمون الإسبان في ١٩٩٤م الجامعة الإسلامية الدولية «آفروس». وليس بعيداً عن الجامع القديم الرائع في قرطبة، يُرفع الآذان ثانياً للصلاة. يالها من إثارة! أن يحدث هذا بعد خمسمائة سنة من طرد آخر مسلم من الأندلس!

٦ ـ في التوقعات المستقبلية المذهلة لمحمد أسد (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) في كتابه الهائل المشهور «الإسلام في مفترق الطرق» ـ الذي كتبه في دلهي عام ١٩٣٤م ـ تكلم عن صعود الإسلام مقابل انحطاط الحضارة الغربية المادية التي تشمل الاتحاد السوفييتي. وبمنهاج مختلف عن المنهاج الاعتذاري والتبريري أمام الغرب، بَيَّن أن الإسلام منهاج شامل كامل ناجح للحياة.

(١) انظر مقالة «عدد المسلمين في العالم» د. ل. م. دورية، هامبورج، فبراير ١٩٩١م.

رأى أسد الحرب العالمية الثانية كصراع لا مفر منه بين القوى المادية في الحضارة الغربية.

توقع أسد أن يجلب التناحر على المادة الكوارث على المعسكرين الغربي والشرقي، ويحط بالحضارة الغربية المادية ـ المملوءة زهواً بالنفس ـ حتى يتطلع الغرب ـ مرة ثانية ـ إلى الحقيقة الروحية، «**وتصبح الدعوة الناجحة للإسلام ممكنة**» والتأكيد هنا من عندي.

بدت تلك الرؤية غير دقيقة مدة ستين عاماً، فبعد الحرب العالمية الثانية، بدلاً من أن ينهار الغرب، انقسم إلى معسكرين، ظهر أنهما يوازنان بعضهما لعصور قادمة.

واليوم، بعد إفلاس النظام والعقيدة الشيوعية منذ ١٩٩٠، وعلامات الخطر بأزمة روحية أخلاقية في الغرب، تمر المسيحية بتغيير في المشروع، وما كان يُسمى «مشروع التحديث» يتساقط أمام أعيننا.

بدأ **منظرو وعلماء الغرب يشكون إذا كانت افتراضاتهم الأساسية صحيحة.**

ثالثاً: مراجعة المسيحية

١ ـ يمثل الاتجاه الحديث في المسيحية من ناحية النظرة إلى المسيح ـ دوره وطبيعته ـ الأزمة الروحية للغرب.

وكان محمد أسد بعيد النظر في هذا المجال أيضاً، فكتب في ١٩٣٤م: «ربما يكون أهم عامل فكري يمنع إحياء الدين في أوروبا، هو مفهوم بنوة المسيح لله» ... «انزعج المفكرون الأوروبيون غريزياً من المفهوم الوحيد الذي اعتادوه، فقد بدؤوا يرفضون فكرة الله، ومعها فكرة الدين».

كم كان أسد صائباً في ذلك، كما سنرى.

٢ ـ لنفهم هذا تماماً، ولنرى الجهد الفائق للتغيير الآن، يجب أن نرجع للمؤتمر الفاضح في نيقية عام ٣٢٥، ونتائجه العقديَّة القاتلة على الألف وستمائة عام التالية.

أمر الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول، أو قسطنطين العظيم، في عام ٣٢٥ ـ وكان لا يزال وثنياً ـ بعقد مؤتمر مسكوني في نيقية ـ إزنيك اليوم ـ على بعد ١٩٥ كم جنوب بيزنطية ـ استانبول الآن ـ أمر الإمبراطور الوثني ـ وليس البابا سيلفستر الأول ـ بعقد هذا المؤتمر الذي افتتحه

الإمبراطور في٢٠ مايو، وحضره ٢٢٥ من القساوسة، معظمهم من الشرقيين، لتبني ما أطلق عليه : قانون الإيمان أو العقيدة النيقية، والتي حددت وثبتت الفصل بين عقيدة المسيحيين من ناحية، وعقيدة اليهود والمسلمين من الناحية الأخرى.

بدون أي إعداد أو تحضير مسبق، وأي مناقشة جدية، تبنى الأساقفة صيغة قدمها الإمبراطور الوثني، تنص على أن:

عيسى المسيح ابن الله، هو الله نفسه، ليس مخلوقاً ولكن محدثاً بواسطة الأب الإله، ومن نفس جوهر الإله.

وبها تم وضع أساس عقيدة التجسيد المقدس، ومن ثم عقيدة التثليث.

كانت النتائج الفورية درامية بدرجة كافية، لأن غالبية المسيحيين في ذلك الوقت ـ أتباع الأسقف آريوس من الإسكندرية، والمسيحيين من أصل يهودي ـ اعتقدوا أن المسيح ليس من جوهر الله، ولكنه بشر اختاره الله، وبكلمات أخرى رسول، أصبح كل أولئك في نظر الكنيسة هراطقة، ومن ثم تم اضطهادهم[١].

(١) على ضوء هذا ـ وأمثاله ـ أعطى كارل ديشنر نقده لتاريخ الكنيسة «التاريخ الإجرامي لعالم المسيحية»، رينبك ١٩٨٦م/ ١٩٨٨م.

٣ ـ أنفق علماء اللاهوت والفلاسفة الكاثوليك والبروتستانت كثيراً من الجهد والوقت لفهم وشرح التجسيد والتثليث بطريقة عقلانية، وفشلوا دائماً، وهل كان يمكن غير ذلك؟ ولذلك لجؤوا إلى الحجة التي لا ترد أن التجسيد والتثليث من أسرار الديانة.

وبفعلهم هذا، غضوا البصر عن عدم وجود ما يشير إلى ذلك في الرسالة الصحيحة لعيسى. بل على العكس من ذلك، فعيسى ـ مثل محمد ـ أكد أنه بشر مثل باقي البشر.

٤ ـ لم يتأثر المسلمون مما قاله المسيحيون عن عيسى، وتمسكوا بما جاءهم في القرآن الكريم.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]،﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ – ٤]، ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]،﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠]، ﴿قُولُوا آمَنَّا

باللَّه وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]،﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤]، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ١٧١]،﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣] .

حتى أولئك الذين يُطلق عليهم مسلمون عصريون أو مستغربون أو مسلمون بالميلاد... لم يخرجوا عن المفهوم القرآني لعيسى.

٥ ـ لاح في المائتي سنة الماضية في العالم المسيحي تعذر الاستمرار في قول اتخاذ الله ولداً.

وفي الواقع، يشرح فقدان المصداقية الواضح في عقيدة الكنيسة في عيسى، انتشار الإلحاد واللاأدرية وهجران

الكنائس، وتحول الناس إلى مذاهب أخرى مثل الأنثروبوسوفي، البوذية، وشامانية الهنود الحمر، ومساواة المرأة بالرجل... وغير ذلك.

لذلك كان من الطبيعي أن تبذل المحاولات الجادة خلال الستين عاماً الماضية لإعادة تأويل مفهوم عيسى داخل النظام المسيحي. وكان رواد ذلك المفكرين البروتستانت كارل بارت (١٩٦٨م)، رودلف بولتمان (١٩٧٦م)، والبروفيسور الجيزويتي كارل رانر.

لقد عَدَّ بارت عيسى بشراً، تفرد باختيار الله له.. وصفة هائلة في الحقيقة!

أما بولتمان، فبأسلوبه النقدي للتاريخ، نزع الأساطير من العهد الجديد لدرجة أن أكثر علماء اللاهوت أصبحوا متفقين على استحالة تأسيس شخصية عيسى التاريخية على ما جاء في العهد الجديد.

انساق رانر في ألاعيب فكرية خادعة ليفك عقدة مجمع نيقية. كان رانر من ناحية جسوراً بما يكفي لإعادة تشكيل نظريات التجسيد، بتقرير أن عيسى كان بشراً تميز بالتسليم

الكامل لله «كتاب مشاكل المسيح اليوم»، التجسيد الإلهي في مسألة الإلهام ممكن نظرياً لأي شخص، وعيسى هو المثل الكامل لهذا التدخل الإلهي.

ومن الناحية الأخرى، منطق نفس البروفيسور رانر التجديف بأن قال يمكن للإله ـ آخر الأمر ـ أن يخلق إلهاً شريكاً إذا أراد ...!

يكفي ما سبق لبيان الأزمة العميقة لطبيعة المسيح ودوره في المسيحية. ﴿**وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ**﴾ [الشورى: ١٤].

٦ ـ يحاول علماء اللاهوت الكاثوليك والبروتستانت الطفو على صيغة يصعب الاعتماد عليها، ويمكن للمرء أن يميز في المعسكر المسيحي ثلاثة مفاهيم للكريستولوجي(*):

* لم يكن عيسى شخصية تاريخية.

* كان عيسى إنساناً كاملاً، اختاره الله وألهمه، ولكن ليس من جوهر الله نفسه، ولم يقم من قبره [١].

(*) علم طبيعة المسيح.

(١) جيرد لودمان «قيام عيسى» ١٩٩٤م، جوتنجن.

* تنتشر الفضائل والرذائل بالتساوي بين أتباع كافة الديانات، وتمثل كلها مفاهيم ورؤى مقبولة ولكن محدودة لنفس الحقيقة.

(بول شفارتزناو، جون هيك) يقود المفهوم الأول للتركيب الأسطوري لعيسى. يدعو الأسقف الدومنيكاني ماثيو فوكس لتبني هذا المفهوم الجديد، كما لو كان تأمله وتخمينه قادرين على الصمود بدون وجود تاريخي لعيسى. (يبدو أن فوكس يقول: فكرة عيسى جميلة جداً، لدرجة أنه يجب اختراعها حتى ولو لم يكن هناك عيسى).

يشير جون هايك (برمنجهام) محقاً إلى أن شخصية فوق تاريخية مثل عيسى (كما مثلته الأساطير) ليست إلا أحد المصطلحات الخاصة بالحقيقة الفائقة.

يتعرض المفهوم الثاني بإعادة البشرية الصرفة لعيسى إلى صعوبة الزعم بتفرده بين الرسل والأنبياء، وفي الحقيقة فإن عيسى مثل هذا، أليس هو نفس عيسى في القرآن؟

تفسر هذه المعضلة لماذا استبدل المفكرون المسيحيون العقيدة الكاثوليكية الشاملة ـ لا خلاص خارج الكنيسة ـ والتي ماتت منذ المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢م ـ ١٩٦٥م) بعقيدة شاملة أخرى:

أتى عيسى بالخلاص طوعاً وكرهاً لكل إنسان تقريباً؟

يحول المفهوم الثاني المسلمين إلى مسيحيين غير معروفين... (شكراً!).

وهناك ما يعكر هذا الافتراض:

يمكننا استنتاج أن المسلمين فقط يتمسكون بعيسى ومريم التاريخيين، ويرفعونهما في تقدير!

يهدف المفهوم الثالث لاتحاد نسبي لكل ديانات العالم، يظهر فيه «العصر بعد المسيحي» يافعاً[١].

وهذه هي النظرة المحببة لقلوب الصوفية في كل العصور.

نشر جلال الدين الرومي (١٢٧٢هـ) ـ ملهم الدراويش الدوارين أو الراقصين ـ تعانق الجميع في ديانة الحب العالمي. فيقول في ديوانه «أنا لست مسيحياً ولا يهودياً ولست أيضاً فارسياً ولا مسلماً»[٢]. هذا شعور بوحدة الكون، كالذي عبر عنه فردريك شيلر في القصيدة الغنائية التي اختارها لودفيج فان بيتهوفن في سيمفونيته التاسعة (تعانقوا أيها الملايين!).

(١) چون هايك: «الحقيقة والإصلاح في المسيحية والديانات الأخرى» الجزء الثاني، بالف ١٩٩٤م ص ١١٣ ـ ١٢٧ .
(٢) ديوان جلال الدين الرومي.

٧ ـ تأخذ هذه العمليات التصحيحية بالأنفاس، فلأول مرة منذ ١٤٠٠ سنة قمرية تلوح فرصة حقيقية لأن تتطابق التعاليم المسيحية مع المسيحيين اليهود، والصورة القرآنية للمسيح.

إذا تحقق هذا، يكون الإسلام أكمل مهمته في هذا الميدان، ويبزغ الأمل في حوار مسيحي ـ يهودي ـ إسلامي، ولأول مرة في مجال العقيدة، بعد أن كان محصوراً في مجال الأعمال الاجتماعية. وعلى عكس ما كان يقترحه البروفيسور الكاثوليكي هانز كونج، لن تصبح مسألة عيسى غير قابلة للاقتراب منها، أو للتفاهم بشأنها. وكنتيجة لذلك، قد يقبل المسيحيون في النهاية القرآن على أنه كتاب إلهي موحى به، ومحمد كمبلغ للكتاب.

رابعاً: ما الذي قام الإسلام ضده؟

١ ـ يا حسرتاه، لدينا سبب ضعيف لنأمل أن نرى المسيحيين يدخلون في دين الله أفواجاً، والاحتمال الأكبر أن يؤدي الانهيار الوشيك للكنائس المسيحية لزيادة الطلب على تجارب الديانات الخاصة ذات الأتباع القليلين، في دُكَّان الديانات العديدة!

كثير من أعضاء الكنيسة السابقين الذين سينفصلون عنها، بدلاً من اعتناق الإسلام، سوف يعملون كمن اتخذ إله هواه.

باختصار، وعلى الرغم من النمو الهائل للإسلام في العالم المسيحي، فإنه سوف يواجه على الأرجح في القرن ٢١ مواقف مختلفة مختلطة: وثنية جديدة، لا أدرية، إلحاداً، شركاً من نوع جديد، عصبية... إلخ. (بالإضافة إلى ظهور أناس) يعبدون أصناماً جديدة مثل: الكوكايين، التنجيم، بوريس بيكر، كلوديا شيفر.

٢ ـ في تقديري، لن يكون الصراع فيما بعد بين المسلمين والمسيحيين، أو المسيحيين واليهود، ولكن بين الأقلية التي تؤمن بالله ـ المسلمين لله بالمعنى الأصلي للكلمة ـ والأكثرية التي أصبحت لا تستريح لفكرة الله، ولا تجد لها معنى، الناس

الذين تنحصر عندهم الحقيقة في حواسهم الخمسة، فالدين عندهم خرافات، أفيون للشعوب، وعلامة على خداع النفس، يكشف عن اختلال المنطق وحاجة للشجاعة ونقص في الذكاء.

لا يوجد فرق أساسي في هذا لمجال بين المجتمعات الشيوعية سابقاً ـ التي تعرضت لسياسة إلحادية فاعلة ـ والبلاد الغربية التي لم يُشجع الإلحاد فيها علناً، ولكن تحت سيطرة المادية والاستهلاك المطلقين، أصبح الإلحاد الطابع العام للحياة.

في الواقع، تشرب الغرب واستنشق كارل ماركس، تشارلز دارون، فردريك نيتشه، سيجموند فرويد(*) ـ ومعهم كل الفلسفة الوضعية والعلمية ـ بطريقة مبتذلة.

سلكت البلاد الإسلامية ـ لحدٍ ما ـ الطريق نفسه بعد استعمار الغرب لها. هجر أكثر أهل الفكر في تركيا ـ على سبيل المثال في إستانبول، أنقرة، إزمير ـ ميراثهم الإسلامي تماماً في سبيل الحداثة الأوروبية، وذلك في غضون جيلين من كمال أتاتورك، لدرجة أَنَّ مِنْ أولادهم من لا يعرف شيئاً عن الإسلام ولا يستطيع قراءة الفاتحة.

(*) وهويز الذي قال: الإنسان ذئب لأخيه الإنسان.

بالطبع ما يزالون يحتفلون بعيد الفطر ـ دون أن يصوموا رمضان ـ مثلهم في ذلك مثل المسيحيين في أوروبا وأمريكا الذين يحتفلون بأعياد الميلاد، دون أن يجزموا بوجود الله أو المسيح، ولا يتعارض ذلك عندهم مع اعتبار أنفسهم مسيحيين. فالمسيحية تعني فقط امتنان الرأي العام لانتشار حضارة إنسانية قامت على التراث المسيحي بقدر مساو للتراث الإغريقي والروماني. وما زالت مراسم التعميد والزواج والدفن تتم بطريقة سطحية، فهي لن تضر.. وقد تفيد بشكل أو بآخر.

على الرغم من أنه ما زال الكثير من الناس يشعرون بتعاطف تجاه العادات الوثنية المصاحبة لاحتفالات أعياد الميلاد، فإنه حتى عندما يخاطب المستشار الكاثوليكي هلموت كول الشعب الألماني في هذه المناسبة، فالله أو المسيح غالباً لا يجيء ذكرهما.. فقد انحصر الإيمان المسيحي في الأصوليين، الذين يحاولون ـ دون جدوى ـ إحياء الكنيسة من أسفل.

٣ ـ عوض الغرب خسارته لله بإيمان لا حد له بالتقدم، الذي جعل العالم يبدو أكثر استنارة وعقلانية، أكثر تحرراً وإنسانية!. أصبحت عملية الحداثة على طريقة الحياة الأمريكية النموذج الذي يجب تشكيل العالم عليه.

لا يهضم رجل الشارع الغربي ـ بصرف النظر عن مستوى تعليمه ـ إلا أن يعيش العالم كله مثله، في مأكله ومشربة وملبسه وعاداته يلبس الجينز، يأكل الهامبورجر، ويشرب الكولا، يشاهد C.N.N، إن عاجلاً أو آجلاً[١].

تسلطت هذه الفكرة بعد انهيار المعسكر الشيوعي عام ١٩٩٠م، مما حدا بفرانسيس فوكوياما ـ رئيس قسم تخطيط السياسة ـ أن ينشر مقالته، التي جعلها بعد ذلك كتاب «نهاية التاريخ». كانت الرسالة واضحة: فقط البلاد المتخلفة والنائية سوف تعجز ـ لفترة بسيطة ـ عن استيعاب التفوق المطلق للمنهج الغربي بما فيه من عقلانية، تحرر، فردية، تسامح، برلمانية، حقوق الإنسان.

بكلمات أخرى، يعتقد الغرب بصفة عامة أن أسلوب الحياة الأمريكي سيفرض نفسه على العالم.

عندما يطالب هاز كونج بـ «أخلاقيات عالمية»، أو عندما يدعو فيلفريد سميث لتنمية «لاهوت عالمي» فإنهما في اعتقادي يفكران في أساس أوروبي لذلك[٢]. سيواجه العالم

(١) د. مراد هوفمان «الإسلام كبديل» ١٩٩٣م باللغات الألمانية والإنجليزية والعربية.
(٢) ن . روس ريت وإدمون بيري «لاهوت عالمي» كبريدج، إنجلترا ١٩٩٢ .

الثالث ـ لا شك في ذلك ـ غرباً ظافراً في مجال الصلاح[١]، الأمر الذي ينم عن العنصرية[٢].

٤ ـ إذا لم يرد العالم الإسلامي أن يعيش في مثل تلك الثقافة الواحدة، وجب عليه أن يبذل جهداً هائلاً ليحقق دار إسلام القرن ٢١، حيث تصبح كلمة الله قانوناً، وتزدهر الحضارة الإسلامية من جديد. في عالم يشعر فيه المسلم أنه في بيته، ليس كمواطن، ولكن كمؤمن وعضو في الأمة الواحدة. عالم يمارس فيه المسلمون التكنولوجيا بعد تهذيبها من اللاإنسانية. عالم يصعد فيه المدح والثناء للواحد الأحد، وله كل التسليم والخضوع.

عالم لا يستبد فيه الاقتصاد وكفاءة التشغيل والإنتاجية والتكونولوجيا العالية، ومعدل التنمية، والحصول على أقصى ربح ـ وإنما تتحكم فيه متطلبات البشرية، المادية والعاطفية والروحية.

باختصار، إذا أردنا نحن المسلمين أن نُتْرك وشأننا، فعلينا أن نجاهد جهاداً جباراً لنحمي حقنا في الاختلاف الثقافي في عالم يسعى لفرض النموذج الغربي علمياً. سوف يتطلب هذا ـ كما

(١) روبرت كورف «الصلاح الظافر، دخل لتوحيد ديانة العالم» ١٩٩٢م.
(٢) ضياء الدين سردار: «الآخرون البربر، إعلان عنصرية الغرب»، لندن ١٩٩٣م.

سنرى فيما بعد ـ «إعادة تأسيس الفكر الإسلامي»[١]، لمواجهة مد ما بعد الحداثة في كل الجبهات: التعليم، الاتصالات، العلوم السياسية، القانون، الاقتصاد، والتكنولوجيا.

باختصار، يتطلب ذلك أن يعود المسلمون بالميلاد، إلى مسلمين بالإيمان والفعل، وليس هناك بديلٌ عن ذلك.

٥ ـ لا ينبى الموقف الذي جاهر به فوكو ياما وزملاؤه عن إمكانية حوار متكافئ بين الشرق والغرب، إن كان أي حوار على الإطلاق. ولنكن فطناء: ما الذي يجعل اللاأدرية العلمانية تهادن الإسلام وتسعى لحلول وُسطى معه إذا كانت قد أفلحت بسهولة تامة في تقليص المسيحية إلى خدمة اجتماعية؟

ما الذي يجعل الغرب يهتم بأن يبحث مع المسلمين مسائل تسمو عن المادة بعد أن نجح في حذفها من أجندته؟

ما الذي يجعل الغرب يأخذ ثقافة العالم الثالث مأخذ الجد إذا كان العالم الثالث ـ بما في ذلك كثير من المسلمين ـ اتخذوا الغرب قبلة، وجعلوا من أنفسهم نماذج للسخرية لدى الغرب؟

يجد السائح الغربي في بعض البلدان الإسلامية النبيذ والخنزير، الإباحية والعري، اليانصيب القومي والقروض

(١) محمدإقبال.

الحكومية ذات الـ١٤٪ فوائد، ويجد العمل بالتقويم المسيحي، وجعل السبت والأحد إجازة أسبوعية، أما المساجد فلا تمتلئ بالمصلين. ما الذي يجعله يأخذ العمال الأجانب في بلده مأخذ الجد عندما يسألون عن اللحم الحلال.

ألن تبدو له مدن مثل إستانبول وإزمير ذات وثنية حديثة بالرغم من الأذان (ضعيف الاستجابة)؟

الحوار بين الشمال والجنوب هو في اتجاه واحد، فقد ربح الغرب سباق الإعلام من زمان، ليعرض أفكاره على المسلمين بالجملة، ويتحكم في حياتهم كالطاعون[١].

٦ ـ رغم كوارث المائة عام الماضية، يبدو ـ بطريقة لا تصدق ـ أن الإيمان الأبله للغرب بالإله الجديد «التقدم» ما زال سائداً.

هل لم يستطع الناس أن يتحققوا أن الحكم المستنير للعقلانية والإنسانية، لم يمنع حربين عالميتين وحشيتين، استخدمت فيهما قنابل الغاز والقنابل النووية، والقصف الإستراتيجي على المدنيين في مدن مثل درسدن.

(١) جلال أحمد «الاستغرابية ـ طاعون من الغرب» بركلي ١٩٨٢ .

هل إستراتيجية مبنية على الردع المتبادل مع التهديد بالإبادة النووية تُعد عقلانية؟ يمكنني أن أستمر، ولكن لن أفعل.

يمكن للمفكرين الغربيين أن يستنتجوا ـ وقليل منهم فعلوا ـ أن الأحداث الرهيبة للقرن الحالي، نفت إمكانية أن تعتمد الأخلاق على التقدم. تسليم الإنسان للأوامر الأخلاقية الإلهية ـ ولا شيء غير ذلك ـ يمكن أن يضبط الأعمال الأخلاقية ـ للأفراد والجماعات.

٧ ـ معلوم أن الأفكار العلمية تصبح مقبولة بعد سنوات كثيرة من إحكامها وإتقانها، لذلك ليس من المستغرب أن عامة الملحدين، واللاأدريين في الغرب، يتبعون ـ بفخر ـ أفكارًا فلسفية من القرن التاسع عشر، متجاهلين تعارضها مع نتائج أبحاث حديثة. يصدق هذا بصفة خاصة على الفيزياء Micro, Macro، وأبحاث المخ.

سوف يذهل كثير من الأكاديميين «المفكرين» عندما يعلمون عدد علماء الطبيعة والطب والبيولوجي المتفوقين ـ مع

استثناء، ستيفن هاوكنج[١] ـ الذين يعتقدون في وجود قوة عليا مفكرة خلقت الأكوان[٢].

تطور الفيزياء لمرحلة ما بعد العلم الحديث، والذي فتح الباب أمام الحقيقة الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة)، بدأ على يد ماكس بلانك (١٩٤٧م) مكتشف نظرية الكمية، ألبرت أينشتاين مكتشف نظرية النسبية (١٩٥٥م)، ڤرنر هايزنبرج (١٩٧٦م) الذي أعلن في ١٩٢٧م مبدأ عدم التأكد أو عدم التحديد بعد اكتشافه استحالة تحديد وضع وسرعة الإلكترون في الوقت نفسه، فإما أن يظهر كجزيء أو كموجة.

دمر هؤلاء الألمان العمالقة مع زملاء لهم مثل: نيلز بوهر، وماكس بورن، آرثر إدنجتون، إروين شرودر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ المبادئ التقليدية للمادة، الزمن، الفراغ.. ليمهدوا لإعادة

(١) ستيفن هاوكنج «موجز تاريخ الزمان»، نيويورك ١٩٨٨م.

(٢) من بين هؤلاء الباحثين في العقل چون إيكلز الحائز على جائزة نوبل «النفس وعقلها»، نيويورك ١٩٧٧م، والفليسوف الفرنسي چان جيتون «الله والعلم» باريس ١٩٩١م، في مناقشة مع جريشكا وايجور بوجدانوڤ.

دخـول الدين في العلم. لخص ريتـشـار سـوينبـرن[١] نظرية الاحتمالات قائلاً: إنه غير مقبول لأقصى الحدود عدم وجود الله.

في الحقيقة، أكثر الفيزيائيين المذكورين، وكارل فريدريش ڤـون ڤـايسـاكـر مـعـهم، تحـولوا ـ بالمصطلح الفلسـفي ـ إلى مثاليين ما بعد الأفلاطونية، فيعتقدون بوجود العالم الروحي، وربما هو الوحيد الموجود[٢].

لا أريد الزعم أن رجل الشـارع غفل عن تلك الثورة كليـاً، ولكن ما اقـتبسـه منها هـو أكثر قليـلاً من أن كل شـيء نسبي، وكل الإدراكات تقع تحت تأثيـر نفسي، والمنطق البشـري قادر فقط على تحديد أبعاده ـ المتماثلة مع الإدراك الحسي ـ كما ألح دافيد هيوم (تساؤل حول الفهم الإنساني)، إيمانويل كانت (نقـد العـقل الخـالص)، لودفـيج فـيـتـجنشـتـاين (بحث المنطق الفلسفي) كل في زمنه.

وفي الحـقـيـقـة، الفـيـزياء الحـديثة التي أخطأ العـامـة

(١) ريتشارد سوينبرن «وجود الله» أكسفورد ١٩٧٩م.
(٢) هانز ـ پيتـردر «الطبيـعـة والسـمـو»، ميـونيخ ١٩٨٦م، بريـچيت فوكنبـرج «ميتافيزيقا الجسيمات» ١٩٩٤م.

مغزاها، لم تؤد لتواضع المفكرين ـ مثلما كان من أبي الحسن الأشعري (٣٣٠ / ٩٤١) ـ ولا للاعتراف بأن أحدث ما عرفناه عن بدء الكون والحياة على الأرض ينسجم مع ما جاء به القرآن في ذلك المجال.

بل رأى الإنسان الحديث شكه، لا أدريته، وفرديته، رأى هذه الأمور تتأكد بانهيار الماركسية، الداروينية والفرويدية. صاغ ذلك الفليسوف يورجن هابريماس: أصبحت الأخلاقيات الحديثة تجسيداً لمبدأ الذاتية[1] بكلمات أخرى، استمر الناس في الاعتقاد ـ بطريقة الدين الزائف ـ أنه لا خلاص خارج العلوم، واستمروا على خطئهم في إقامة ذلك العلم القاطع على مادية ووضعية القرن التاسع عشر التي عفا عليها الزمان.

٨ ـ إنه لأمر مزعج قلة من يهمهم شأن ما أصاب مجتمعاتهم في الغرب.. فقدان المعنى، وغياب أي هدف أسمى في الحياة، مع ازدياد الفراغ ـ نقص روحي ينذر بتحويل الوجود الفردي إلى مهمة يائسة عديمة المعنى ـ حقاً كما قال برافيس منصور: الإلحاد يجبي ضريبته من كل نفس في الغرب.

(١) يورجن هابريماس «مقالات فلسفية حديثة» فرانكفورت ١٩٨٥م.

كما لو كان الانحطاط المأساوي لأخلاق الغرب وتضامنه غير واضحين: الجريمة، إدمان الكحوليات والمخدرات، الشذوذ المعلن، الإساءة للأطفال، ارتفاع معدلات الطلاق (إن كان هناك زواج من الأصل)، الإباحية الشديدة. قد يكون الأسوأ في ذلك اتجاه الشباب ليعيشوا فرادى رجالاً ونساءً، ولا يستطيع أحد حتى الآن أن يقدر حجم الخسارة لجيل نشأ دون وجود أحد والديه.

٩ ـ يصاحب هذه الورطة ويعقِّدها روح تشككية بعيدة عن اليقين والاطمئنان. تأكد الناس أن المستقبل لا يحمل ما يتوقعونه، تلا انهيار الشيوعية فترة قصيرة لانتصار الغرب، وبدلاً من أن ينعم العالم بالسلام، انتكس إلى قوميات وشوفينيات القرن التاسع عشر، وما تسببه من حروب مسعورة مثل تلك التي شنها الأرثوذكس اليونانيون والصرب ضد كل من كرواتيا والبوسنة والهرسك، والتي شنها الروس على المسلمين في القوقاز.

ولم يسترح الناس أيضاً عندما تحققوا أن العالم المسمى بالمتحضر غير قادر على كبح تدمير البيئة سواء بسبب نوع الوقود أو الزيادة المتناهية في الاستهلاك.

يُلهب الدخان والضباب فوق المدن الكبرى مخيلاتنا بيوم القيامة.

ولكن لا يمكن كبح جماح الهدونيزم[١].

استنزف الانحلال قوة إرادة الغرب، ولا تستطيع الطبيعة أو البيئة أن تحل محل الدين في بواعثه وأهدافه ومرجعيته الشاملة، ولا يمكن أن تمد الإنسانية بقيم تجمعها.

(*) الهدونيزم: مذهب فلسفي يقول: إن اللذة والسعادة هما الخير في الحياة.

خامساً: الإسلام والغرب: مواجهة أخرى؟

١ ـ لن يكون من العدل اتهام الثقافة الأوروأمريكية ذات المدخل الاستعماري الجديد بالعجز الكامل عن أي تسامح مع الأديان، بل بالعكس، فقد يهتم أكثر الأشخاص استنارة اهتماماً اجتماعياً ببعض الأديان، مثل: البوذية والثيوسوبية(*).

وفي الواقع، يستطيع المرء في أوروبا أو الولايات المتحدة أن يتبع مرشده الروحي الهندي، أو يمارس سحر الهنود الحمر الشاماني دون خطر أن يفقد عمله أو حياته. طالما ليس هناك ما يمس العمل أو المؤسسة السياسية، فلا ضرر من اتباع ديانات غريبة، وأسوأ ما يقال في ذلك أنه شيء غريب.

وفي العادة، فإن اتباع ديانة ما يُعد من الأمور الخاصة، كنوع من الفولكلور، والقاعدة العامة فى ذلك: كل شيء يجوز!

إلا:

إلا إذا كان الدين المعني هو الإسلام.

فالإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يشمله التغاضي اللطيف، أو التسامح الجميل. أسباب ذلك معقدة ومتنوعة،

(*) الثيوسوبية: معرفة الله عن طريق التأمل والتصوف.

يرجع بعضها إلى الحروب الدموية بين المسيحيين والمسلمين، والصراع السياسي والتجاري للسيطرة على البحر المتوسط.

٢ ـ ترجع عداوة المسيحيين للإسلام تاريخياً، لاعتقادهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان دجالاً. كان ذلك سيئاً بما يكفي في عيون المسيحيين، الذين من الناحية الأخرى تفهموا أن يظل اليهود متمسكين بالإيمان الموسوي، نتيجة الميل الطبيعي عند الناس للتمسك بالعادات والاعتقادات القديمة. (ألم يكن ذلك موقف كفار قريش من الدعوة؟).

ولكن ظهور دين جديد بعد المسيح بحوالي ٦٠٠ عام، اعتبر فيه المسلمون خلاص العالم بسبب صلب المسيح ابن الله ليس فقط استفزازاً بل إهانة ، سبب رد فعل عند المسيحيين. ويمكن للمسلمين أن يفهموا شعور المسيحيين عندما يجدوا طوائف جديدة تظهر بعد محمد وتدعي أنها أوحي إليها، مثل الدروز والبهائيين والقاديانيين(*) فالقرآن يقول بوضوح: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ**

(*) ولكن ليس في الأناجيل ـ حتى بصورتها الحالية ـ ما يفيد أن عيسى عليه السلام آخر الرسل، بل هناك كثير من الآيات التي توحي بانتظار رسول آخر، سواء في العهد القديم أو الجديد، وقد بين كثيراً منها أحمد ديدات.

﴿الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]، ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: ٤٠].

السبب التاريخي الثاني لنمو العداء، هو الاقتناع المسيحي أن الإسلام دين قتال وعدوان، ويبررون انتشاره بالعمليات العسكرية. فكيف بالله يمكن لأحد أن يبرر التوسع الهائل للإسلام من الحجاز إلى القسطنطينية (٦٦٨)، وسط فرنسا (٧٣٣)، والهند(٧١٠)؟

لا يستطيع العالم المسيحي أن يعترف ببساطة أن الإسلام انتشر لأنه حرر الشعوب التي كابدت الحكم القيصري والبابوي والكسروي، وأن كثيراً من المسيحيين الذين زندقهم مجمع نيقية رحبوا بالإسلام الذي قال عن عيسى ما كانوا يعتقدون، فهو رسول وليس ابن الله. هجر الناس الكنائس أفواجاً ودخلوا في الإسلام.

بأي طريقة أخرى استطاع حفنة من العرب أن يقهروا الإمبراطوريات؟

ولكن حتى اليوم ـ لحفظ ماء الوجه ـ يصر العالم الغربي على الأسطورة التي اخترعها، أن الإسلام انتشر بالسيف والنار[١](*).

الإدعاء أن محمداً قلد ـ برداءة ـ بعض تعاليم المسيحية، وجذب دينه الجديد البسطاء ببدائيته الجنسية، ألم يسمح الإسلام بالزواج من أربع؟ ألم يكن الرسول ﷺ متعدد الزوجات؟ سُمي بعد ذلك ـ وحتى اليوم من سلمان رشدي ـ «Mahound»؟(*)

(١) نموذج لذلك التضليل «الحرب المقدسة باسم الله» ڤيلي ديتل ـ ميونيخ، ١٩٨٣م.

(*) ويعجب المرء من استمرار تلك الأسطورة حتى اليوم، حيث المسلمون مستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها، ومع هذا يزيد تمسكهم بالإسلام في بلاد مثل كشمير والبوسنة والهرسك والشيشان وغيرها، بل ويدخل آلاف الأمريكيين والأوروبيين في الإسلام سنوياً. ناهيك عن البلاد التي دخلت الإسلام بأكملها دون أن يصلها جندي مسلم واحد، ومثال لذلك أندونيسيا وماليزيا وتايلاند والفلبيين، فيها عدد من المسلمين يتجاوز المسلمين العرب، كذلك كل إفريقيا المسلمة إذا استثنينا شمال إفريقيا.

(*) كان تعدد الزوجات موجوداً قبل الإسلام ـ ولم تحدده اليهودية ولا المسيحية بأي عدد ـ وزوجات داود وسليمان أكثر عشرات المرات من زوجات محمد، ومع هذا لم نسمع أحداً في الغرب يتهم أياً منهما بأنه مهووس جنسياً، بل إن داود هو في نظر اليهود والمسيحيين على السواء الرجل الكامل.

وجاء الإسلام لأول مرة في تاريخ الديانات بتحديد عدد الزوجات. ولنأخذ ـ على سبيل المثال ـ من زوجات النبي:

=

بهذا أصبحت إدانة الإسلام جزءاً لا يتجزأ من العقلية الأوروبية.

شكلت الأفكار الزائفة المتفجرة السابقة الروح الصليبية الحربية عديمة التسامح، والتي وُلِدتَ منها أوروبا الحديثة.

٣ ـ ليس ما يهمنا اليوم طبيعة الحروب الصليبية كأول إعلان عن الإمبريالية الأوروبية، تدوس بقدمها كل مثاليات ومسلمات المسيحية[١].

ومع هذا، كان ذلك الميراث الانفعالي أقل سوءاً على المستقبل مما تلاه، فعندما تقابل الفرسان الصليبيون مع العرب البرابرة السارقين، فوجئوا بحضارة تفوق حضارتهم.

رجع كثير من الفرسان منزعجين مما رأوا وعاينوا في الأرض المقدسة: مستوى معيشة لا تعرفه أوروبا ذلك الوقت،

= ـ أم حبيبة: تزوجها النبي وهي في الحبشة التي هاجرت إليها مع زوجها المسلم هروباً من إيذاء قريش، فلما ارتد زوجها، تزوجها النبيﷺ وهي في الحبشة، ولا يعلم متى ستعود.

ـ حفصة: تزوجها النبي بعد استشهاد زوجها وبعد أن عرضها عمر على أبي بكر وعثمان فلم يردها أيهما.

ـ جويرية بنت الحارث: قالت عائشة ـ أكثر زوجات النبي غيرة ـ لم أعرف امرأة أكثر خيراً على أهلها من جويرية بزواجها من النبي.

ومعلوم زهد النبيﷺ، وكيف كان يستأذن من عائشة ليتفرغ للعبادة.

(١) أمين معلوف «الحروب الصليبية من وجهة نظر العرب» باريس ١٩٨٣م.

معرفة القراءة والكتابة، علوم طبية مزدهرة، فروسية حقيقية وتسامح، جسدها صلاح الدين البطل الكردي.

كانت حضارة تماثل تلك التي ازدهرت في الأندلس تجعل الخصوم المسيحيين يخجلون من أنفسهم، كاشفة لهم أنه إذا كان هناك برابرة، فأولئك هم.

تلك التجارب في قاع ظاهره خوف أوروبا من الإسلام، ذلك القلق والتوتر الذي بلغ مداه في الحصار التركي لڤيينا (١٥٢٩م، ١٦٨٣م).

٤ ـ سيكون وهماً خطيراً أن نعتقد تلاشي الروح الصليبية.

على العكس، أصدر البابا پيوس الثاني في ١٤٦٣م بياناً صليبياً ضد العثمانيين بعد مرور عشر سنوات من دخول محمد الفاتح القسطنطينية.

كذلك لم تنته استعادة إسبانيا من المسلمين بالتخلص من اليهود والمسلمين عام ١٤٩٢م، فقد مد الأسبان نفوذهم على الشمال الغربي لإفريقيا، فأقاموا القواعد في الجزائر والمغرب، وما زالت سبتة ومليلة المغربيتان تحت احتلالهم.

حاول البرتغاليون التوسع نفسه على الساحل الأطلنطي للمغرب في القرن ١٦، وأنشؤوا قواعدهم في عزاليا، لاراش، الجديدة، صافي، الساويرا.

حاول ملك البرتغال الشاب سباستياو بجدية في ١٥٧٨م أن يُنَصِّر المغرب، ولكن خسارته لمعركة الملوك الثلاثة قرب القصر الكبير أنهت الحرب الصليبية بكارثة فقد حياته، وفقدت البرتغال المغرب لأسبانيا[١].

يُناسب المقال تماماً استعمار بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وروسيا خلال القرن ١٩ لكل العالم الإسلامي تقريباً.

تأسست في تونس البعثة التبشيرية «الآباء البيض» لتنصير بربر المغرب. وهل اختلف تصرف البريطانيين بفلسطين عما فعله الصليبيون عندما أقاموا مملكتهم في المنطقة؟

بعد هذه الخلفية لن يندهش أحد عندما يعلم أن الملك اليوناني كونستانتين في حربه مع الأتراك عام ١٩٢٢م خالف جيشه واقتفى أثر ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٩٠م.

(١) چين برجنون «تاريخ المغرب» الدار البيضاء ١٩٦٧م.

وفي الحرب الصربية الحالية ضد المسلمين في البوسنة والهرسك رفع الصرب واليونانيون شعار الحرب الصليبية لاستئصال الدولة الإسلامية من أوروبا.

لا يُصدق ولكن حقيقي: عادت الحروب الدينية لخشبة المسرح العالمي[١]، وليست البوسنة آخرها، ولكنها أحدث الحروب الصليبية[٢] ويسأل الناسُ أنفسهم ثانياً: الله في صف من ؟[٣]

في الحقيقة، لم ينته عصر الحروب الصليبية في أي زمان.

اليوم، ليس البابا من يدعو للحملة ضد الإسلام، ولكنه قد يكون مجلس الأمن بالأمم المتحدة، يدعو للتدخل لإنقاذ دولة سقطت (مسلمة بالطبع) أو لفرض حظر سلاح على دولة مسلمة ضحية للعدوان.

نعم، إذا سبرت غور النفس الأوروبية، ولو بخدش سطحي صغير، لوجدت تحت الطبقة اللامعة الرقيقة عداء للإسلام ـ عقدة فيينا ـ التي يمكن استدعاؤها في أي وقت. وهذا ما حدث بالضبط في أوروبا خلال العشرين سنة الماضية.

---

(١) كارين أرمسترونج «الحرب المقدسة: الحروب الصليبية وأثرها على عالم اليوم» نيويورك ١٩٨٨م.

(٢) أكبر أحمد «آخر الحروب الصليبية»، آراب ريڤيو لندن ١٩٩٣م.

(٣) جيمس ومارت هيفلي «العرب، المسيحيون، اليهود: الله في صف من؟» هانيبال، أمريكا ١٩٩١م.

يعيش اليهود اليوم آمنين في أوروبا، ولا تلوح في الأفق أي مشاريع ضدهم. ولكن ماذا سيحدث عندما تثار العنصرية الكامنة ضد الساميين الآخرين: العرب؟

لا يكاد يمر يوم دون الاعتداء على جامع في مكان ما في أوروبا. أستكون هناك «ليل بلورية»[١]، هذه المرة بالتقسيط على دفعات، يقوم بها أصحاب ضمائر طيبة لينقذوا أرض آبائهم من الصراصير البشرية؟

آمل أن أكون مبالغاً في تقدير الخطر.

٥ ـ دعنا لا نلقي كل اللوم على طرف واحد، فلسوء الطالع اشترك العالم الإسلامي في تكوين الصورة السلبية وتلويثها. سواء أحببنا ذلك أم كرهناه بررناه أم لا، أصبح الإسلام في الغرب مشبوهاً بالتعصب، القسوة، عدم التسامح، العنف، الاستبداد والطغيان، خرق حقوق الإنسان، التخلف المرغوب.

ويا حسرتاه، فما أصعب أن تشير إلى بلد مسلم يُمارس الإسلام فيه كاملاً، ومستحيل تقريباً أن تعرض نموذجاً اقتصادياً إسلامياً فعالاً ليتقبله العالم.

(١) قصد النازي بهذا تدمير الممتلكات اليهودية في ألمانيا ٩ نوفمبر ١٩٣٨م.

كذلك لا فائدة من إنكار خجل العالم الإسلامي ـ ولمدة طويلة ـ من مناقشة جديدة بناءة ـ لا تبريرية ولا اعتذارية ـ لمبادئ حقوق الإنسان.

لكل تلك الأسباب، لا يمكن إنكار ظهور الإسلام المعاصر كمن يحارب الحداثة[١]. وكانت ملاحظة فيلفريد كانتفل سميث في محلها «خوف الغرب ومرارته من الشيوعية كانا نسبياً معتدلين ولفترة قصيرة بالمقارنة بقرون معاداة الإسلام[٢]».

٦ ـ تظهر معاداة الإسلام حالياً في صور كثيرة، الاستبعاد، تطبيق معايير مزدوجة وأبرزها العدوان الإلحادي العنصري.

لنبدأ بالاستبعاد. سنة بعد سنة نجد كتباً دراسية في تاريخ الفلسفة، تشمل أكثر الكتب مبيعاً، مثل الكتاب الساذج (عالم الصوفية)[٣]. ولا يجد المرء فعلياً تعريفاً مناسباً لفيلسوف مسلم. قد يُذكر ابن سينا وابن رشد، ولكن بأسمائهما اللاتينية Avicenna, Averroes ووسط علماء

(١) داڤيدپريس ـ چونز « في حرب ضد الحداثة: تحدي الإسلام للغرب» لندن ١٩٩٢ .
(٢) ڤليفريد سميث« ما هو الكتاب المقدس؟» لندن ١٩٩٣ .
(٣) چوستين جاردنر. أوسلو ١٩٩١ .

اللاهوت والفلسفة الكاثوليك، وعادة ما يتم تجاهل الكندي، الرازي، والفارابي، الأشعري، مدرسة المعتزلة، الغزالي، السهروردي، ابن عربي.

وهذا بالرغم من الحقيقة التي لا يمكن إنكارها من قيام الفلاسفة المسلمين بحفظ وتطوير الفلسفة والعلم الإغريقي.

جزء من ظاهرة التجاهل هذه، الجهل الذي لا يغتفر بالإنجازات الحضارية الهائلة للمسلمين في الأندلس، من القرن الثامن إلى الخامس عشر[١].

لأُبَسِّط الأمر: جهل المرء بالإسلام وحضارته، لا يُعد في أمريكا أو أوروبا نقصاً في التعليم.

٧ ـ يكيل الغرب بمكيالين، وهذا ظاهر للعيان، لنأخذ الإعلام الغربي كمثال. إذا هاجم إرهابي ـ من خارج العالم الإسلامي ـ هدفاً، جاءت التقارير مقاتل أو محارب من الـ IRA، أو ETA، أو غير ذلك قام بـ .. ولن نسمع مطلقاً «متعصب كاثوليكي» أو «متعصب اشتراكي» حتى الهجوم بالغاز في مترو طوكيو

(١) سلمى جايوس «تراث إسبانيا المسلمة» لندن نيويورك ١٩٩٢م ص١١٠٦م، زيجريد هونكه «شمس العرب تسطع على الغرب» شتوتجارت ١٩٦٠م.

مارس ١٩٩٥م، نُسب إلى راديكاليين، أما إذا ألقى شخص من الشرق الأوسط، أو الجزائر قنبلة غاز، فينسب العمل لمسلم متعصب، حتى لو كان ذلك العربي مسيحي أو بعثي ملحد(*).

لنأخذ حالتي الشخصية مثالاً على ذلك هاجمت إحدى وسائل الإعلام الألمانية كتابي «الإسلام كبديل» قبل صدوره ١٩٩٢م، وشنت حملة كراهية ضدي مطالبة سحبي كسفير لألمانيا في المغرب، وذلك دون أن يقرؤوا الكتاب!

انهالت الاتهامات عليّ بأني أدعو لتعدد الزوجات، وضربهن ورجمهن، وقطع الأيدي والأرجل. (كتاب سلمان رشدي ـ على الأقل ـ تمت قراءته قبل اتهامه بالتجديف)(**).

يبدو أن وسائل الإعلام تشكو من قرون استشعار انتقائية، خاصة عندما تلصق بالإسلام القسوة والفظاعة كما لو كانت من مكوناته، وكما لو كان للإسلام ارتباط بالعنف أكثر من أي دين أو مذهب. عندما ننسب أفعال صدام حسين للإسلام،

(*) هل ساعد إعلامنا على ذلك؟
(**) التجديف = أي الكفر بنعمة الله.

فلماذا لا ننسب جرائم ستالين في الاتحاد السوفييتي لأنه مسيحي أرثوذكسي، أو جرائم هتلر لأنه مسيحي كاثوليكي؟(*)

يترك الإعلام الغربي شهادات التعميد خارج اللعبة، إلا إذا خصت المسلمين. لا يُحلل نشاطهم السياسي على أساس دوافعه السياسية، ولكن كنتيجة لديانة شريرة.

هل يريد أحد استثارة مقارنة تحليلية بين المسيحية والإسلام ليرى أيهما أهدر دماءً أكثر؟

٨ ـ لا حصر الآن للتفرقة. يجد المرء اليوم في أوروبا الغربية مئات الجوامع الصغيرة، ولكن في الشقق أو المباني الصناعية المهجورة. وإذا أراد المسلمون بناء جامعٍ مناسبٍ، بمنارة عالية، فتوقع معركة قانونية، سواء كان ذلك في ليون أو إسين، وقد وجدوا ـ فجأة ـ أن مدخنة مصنع أكثر جمالاً من منارة على الطراز التركي. بل يجادلهم أحدهم أن المساجد لا تناسب العمارة والمناظر الطبيعية في أوروبا.

(هل لذلك يتم تدميرها بانتظام ومثابرة في البوسنة؟).

(*) بل إن صدام حسين البعثي، قد وقف وراءه العالم كله شرقه وغربه، مسلمه ومسيحيه عندما حارب إيران ما يزيد عن ثماني سنوات.

وفي النهاية، يضطر المسلمون للفصال على كل متر ترتفعه المنارة ـ وياله من سخف مضحك ـ فعليهم أن يَعِدُوا بأن تلك المنارة لن يستعملها المؤذن حتى لا يزعج السكان ويقطع عليهم السكون والهدوء. وبالطبع هنا مفارقة مع أجراس الكنائس التي يمكنها أن تدق في أي وقت، حتى في ساعات الصباح المبكرة.

قد يكون النداء للصلاة مقبولاً إذا استبدل بالآذان قول: بيم بام ـ بيم بام، كما اقترح الكاريكاتوري الهولندي؟

إذا أراد المجتمع اليهودي في أوروبا أن يذبح حيواناً طبقاً لتقاليده فبكل تأكيد لا غبار عليه في ذلك، ولكن إذا أراد المجتمع المسلم الكبير الشيء نفسه فبكل تأكيد تعوقه كثير من الحجج القانونية، وتنكر عليه حقه في الحصول على اللحم الحلال.

حتى في المجتمع العلمي، هناك معيار مزدوج. فمن الواضح ـ خصوصاً في الولايات المتحدة ـ في العقود الأخيرة وجوب توافق الأبحاث العلمية مع ما يُعد سليماً أو صحيحاً سياسياً.

فسوف يحطم البيولوجي مستقبله إذا جرؤ على تحدي نظرية داروين، تماماً كما يحطم العالم السياسي مستقبله فجأة، إذا جرؤ على انتقاد الافتراضات الأساسية للانحياز الأمريكي لإسرائيل.

لا يُطلق على هؤلاء السياسيين «السُّلَمَاء» أو «أصحاب المواقف الصحيحة» أصوليون، أو أنهم أعداء التقدم، لأنهم بنوا مواقفهم على افتراضات فوق النقد والبحث. ومن الناحية الأخرى، إذا انطلق أحد المسلمين من افتراض أن بعض القيم القرآنية صالحة لكل زمان، لم يأخذه أحد على محمل الجد.

٩ ـ يشعر المسلمون بالمرارة والسخرية عندما يجدون معياراً مزدوجاً في سياسة الغرب والأمم المتحدة، فيقولون باستهزاء على القانون الدولي: إنه أشقر وعيونه زرقاء. لنأخذ مثلاً نظاماً عسكرياً أحبط وصول أصوليين مسيحيين للسلطة بعد أن فازوا في الانتخابات، ليكن ذلك في هاييتي مثلاً. ستتحد الدول ضد ذلك الدكتاتور وتتدخل لصالح الحكومة المنتخبة ديمقراطياً. إلا.. إلا إذا كان الفائز بالانتخابات حزب أصولي إسلامي ـ في الجزائر مثلاً ـ سيكون للمجلس السياسي في هذه الحالة فرصة طيبة ليحظى بالتسامح. عما يفعله من شر صغير، فالشر الكبير هو الإسلام في أي صورة.

لنأخذ مثلاً آخراً، دولة احتلت دولة مجاورة بالقوة العسكرية، وشرعت في ضمها إليها، الكويت مثلاً. يتدخل في هذه الحالة كل من الأمم المتحدة، الناتو، وأمريكا، وبقوات هائلة لتحرير البلد المحتل، وسوف تُرسم حدوده تحت تأثير عمليات مقاطعة وحصار دولي على العراق إلا .. إلا إذا كانت الدولة المحتلة البوسنة والهرسك، عديمة البترول، أو كانت الدولة المعتدية إسرائيل، على فلسطين أو سوريا أو لبنان.

خذ مثلاً آخراً، الاحتلال التركي المؤقت لشمال العراق في مارس ١٩٩٥م لضرب قواعد الحزب الكردي الشيوعي الانفصالي. لم يتمكن العراق من منع هجمات الحزب الكردي على تركيا، لأنه محظور عليه ممارسة سيادته على تلك المنطقة. فأصبح التدخل العسكري التركي له مبرراته القانونية، بل هو بذلك قضية من قضايا الناتو. ولكن انتقدت تركيا بشدة على ذلك الاحتلال المؤقت، ومن شخصيات لم ولن تنقد إسرائيل مطلقاً على احتلالها الدائم لجنوب لبنان تحت دوافع تركيا نفسها. ولكن تركيا بلد مسلم.

١٠ ـ يُرجع البعض الآن الوسواس الأوروبي ضد قيام حكومات إسلامية، للخوف من أنها لن تتوافق مع الحكومات

العلمانية في الغرب. وفي هذا خداع واضح، فالحكومات الغربية جمهوريات ديمقراطية مسيحية، وذلك بالقانون، عدا فرنسا، كما لاحظها الطهطاوي من ١٨٢٥م ـ ١٨٣١م[١].

في ألمانيا مثلاً، الله مُعتبر في الدستور. الأحد إجازة رسمية، كذلك الأعياد المسيحية. يتوجه كل من المستشار والرئيس بكلمة للشعب في الكريسماس. تعلم المدارس الحكومية الديانة المسيحية بواسطة مدرسين تدفع الدولة مرتباتهم.

يُقسم الجنود بالله على ولائهم للجمهورية والدفاع عنها. تجمع الإدارة المالية بالحكومة «ضريبة الكنيسة» للإنفاق على الديانة المسيحية المعترف بها: الكاثوليكية، اللوثرية، الإصلاحية، وعلى اليهودية. للكنائس الحق في قرع أجراسها، التجديف جريمة يُعاقب عليها في قانون العقوبات، أشار الأساقفة الكاثوليك ـ رمزاً ـ باجتناب التصويت لبعض الأحزاب.

والحال مشابه لذلك في البلدان الأوروبية الأخرى، وفي أمريكا، أما في فرنسا فالعلمانية تؤخذ على أنها دين.

---

(١) رفاعة الطهطاوي «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» القاهرة ١٨٣٣ .

تحتمل الحكومة الإسلامية علمانية مثل ذلك. فيمكنها أن تفصل بين السلطات الثلاث عضوياً، وتربطهم ببعض ديناميكيا[١].

بعد هذه الحقائق، يكون نفاقاً صريحاً رفض الحكومة الإسلامية لأنها ليست علمانية.

١١ ـ أدى طول اتباع الغرب لسياسة المعايير المزدوجة لنتائج فاجعة. فقد اقتنع كثير من العرب أن الغرب لا يريد لهم الديمقراطية، حتى لا تأتي لهم بحكومات أصولية.

يتفق مع هذا الخط أن إرهابياً سابقاً مثل مناحم بيجين يمكن قبوله كسياسي ديمقراطي ، إلا.. إلا.. إذا كان هذا الإرهابي السابق مسلماً وحسب أو مسلماً أصوليّاً فقط وليس إرهابياً مثل عباس مدني.

لن يحظى مثل هؤلاء حتى بفائدة الشك في اعتبار ديمقراطيتهم.

لن يُطلق لقب «أصولي» على أمثال منظمة أوبوس داي الكاثوليكية، أو الأسقف الفرنسي الراحل ليفبفر،

(١) أحمد النيفار «الإسلاميون» ما شاء الله، ١٥ ـ ٢١ رقم ٧، تونس ١٩٨٤م.

أو الإسرائيليين المتعصبين، أو طائفة مائير كاهان في نيويورك، أو الإرهابيين الكاثوليك أو البروتستانت في أيرلندا الشمالية، أو لاهوتي التحرير الكاثوليكي العسكري في أمريكا الجنوبية.

لا لن يُطلق عليهم ذلك اللقب الازدرائي، فهو محجوز للحط من قدر المسلمين فقط.

أكثر خطورة من ذلك، ما استنتجه كثير من المسلمين مما يفعله الغرب في البوسنة عن أن يتسامح عن وجود دولة إسلامية على الأرض الأوروبية.

دعونا لا نخدع أنفسنا، والتحامل الغربي ضد الإسلام والحط من شأنه وصلا لدرجة يمكن أن تحول الخوف وعقدة التفوق إلى عنف عدائي للإسلام، كما حدث في ١٨ مارس ١٩٩٥م عندما تم إلقاء زجاجة مولوتوف على جامع المركز الإسلامي في ميونيخ.